قصيدة بانت سعاد.. سطور في تحقيق المتن

بقلم: د. محجوب محمد آدم*
السودان

لقد عجبت لأولئك الذين تحرجوا في إثبات قصيدة كعب بن زهير المشهورة : (بانت سعاد...)، ومسألة سماع النبي ﷺ لها، - بزعمهم - غزلا مسرفا، وذلك بعد أن طمأننا الباحث السعودي أحمد علي آل مريع، جزاه الله خيرا، في الورقة الأخيرة من مجلة الأدب الإسلامي (ج١٠، ع٣٩، ١٤٢٤هـ) أن للقصيدة سندا متصلا، وأن روايتها في الأدب مستفيضة مشهورة.

وبقي علينا أمام هذا التوثيق العلمي أن نتساءل عن نوع الغزل الذي جاء في القصيدة، ومدى تضمنه لما يخدش الذوق العربي ! ولك أن تتساءل معي عن ضرورة الابتداء بالغزل في شعر قيل بغرض استعطاف رسول الله ﷺ والتماس عفوه ورضاه، والاعتذار عما بدر منه في هجاء المسلمين! إذ يقال : « إن أخاه بجير بن زهير أرسل إليه : ويلك، إن النبي أوعدك، وقد أوعد رجالا بمكة، فقتلهم، وهو والله قاتلك أو تأتيه فتسلم، فاستطير، ولفظته الأرض». هذا نص الجمحي (الطبقات ٩٩/١).. أما كان جديرا به أن يدخل في موضوعه مباشرة ؟

قد يجيبنا أحدهم: إنه ما فعل ذلك إلا لأن الشعراء في الجاهلية التزموا أن يبدؤوا قصائدهم بالغزل، وأنه ما كان ليخاطب النبي العربي ﷺ إلا بما ألفه العرب من طرائق القول. وعندئذ كان ينبغي لنا أن نقر الشاعر لالتزامه بسنن الشعر الجاهلي. ولكن هل كان غزله كذلك.!

إنك إن قرأت غزله لأعجبت أيما إعجاب بجمال مظهر صاحبته (سعاد)، بحيائها، واعتدال قوامها، وجمال ثغرها، فإن أردت أن تتبين خلقها وسلوكها أحزنك أنها خبيثة المخبر، فصب الشاعر جام غضبه عليها، ونعتها بالكذب والنفاق والتلون، وأنها لا تفي بعهودها، ولا تلتزم بوعودها. وما أظن رجلا سويا يعشق امرأة بهذا الوصف.

فما سر اختيارها لها، والتعرض لسيرتها في ظرف كظرفه، وهو يدخل على رسول الله ﷺ الذي أهدر دمه، فجعل قتله قربى إلى الله تعالى، وفي وقت اشتدت فيه شوكة المسلمين، بعد غزوة حنين بالطائف، ودخول الناس في دين الله أفواجا، فلا أحد يجرؤ على إجارته أو توفير الأمان له، لا شك أن الدنيا ضاقت عليه بما رحبت، وكل من قابله يقول له : «إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول». ولا شك أن الخوف قد أخذ بمجامع قلبه فأتخيله، وهو يتلفت وجلا في سيره، ولا أظنه كان يخرج إلا ليلا «وثوب الليل مسدول»، ويتقلب مرتعدا في فراشه. ولم يكن له بد من اللجوء إلى رسول الله ﷺ ، فهو وحده الذي يستطيع أن يؤمنه ويهدئ من روعه ويزيل ما به من فزع، إن عفا عنه. وفي طبقات الجمحي (وانظر : الأغاني ٨٩/٧١، والدلائل ٢٢/١) أن كعبا قدم متنكرا «حين بلغه عن النبي ما بلغه، فأتى أبا بكر، فلما صلى الصبح أتى به، وهو متلثم بعمامته، فقال : يا رسول الله، رجل جاء يبايعك على الإسلام، وبسط يده، وحسر عن وجهه، وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير، فتجهمته الأنصار، وغلظت عليه لما ذكر به رسول الله، فأمنه رسول الله..». فأين ذهب أصدقاؤه ؟ ولماذا وقفوا مكتوفي الأيدي، لا يجرؤ أحدهم أن يمد له يده أو يفيده بشيء؟

لا شك أنك لو كنت مكانه لحسبت أن الناس جميعا انقلبوا أعداء، وما تراك كنت فاعلا بأمثال أصدقائه الذي تقاعسوا عن نصرته، أو مد يد العون له، بل تحاشوه

* أستاذ بكلية المعلمين بالرياض.

ونفروا من ملاقاته، وهم يتعللون بحجج واهية وادعاءات باطلة، ويزعمون أن أمورا تشغلهم عنه، لقد نسوا ما كان بينه وبينهم من مودة وحب، لقد نسوا أنهم كانوا قديما يطلبون وده، ويسعون لملاقاته هاشين باشين. لا شك أن أكثر الأوصاف تهذيبا مما يمكن أن تصم بها أصدقاءك في هذه الحالة أنهم كاذبون منافقون متلونون كما تتلون الغول في أثوابها، فهل كان له أن يعتمد على صداقاتهم، أو يبادلهم مودة بسخط. أم أنه بهذه النفس الموزعة تحسب أنه يتغزل حقيقة، أو ينصرف إلى قضية أخرى، مهما كانت مهمة، وحياته معلقة بين الحياة والموت. أما عني فلا أظن شاعرا وصف هذه الحالات النفسية الحادة، والانفعالات المضطربة، كما وصف كعب بعد تخلصه من المقدمة :

يسعى الوشاة بجنبيها، وقولهم
إنك يا ابن أبي سلمى لمقتـــول
وقـال كـل خـليـل كـنـت آمـلـه:
لا ألهينك، إني عنك مشغـــول
فقلت خلوا سبيلي، لا أبا لكم
فكل ما قدر الرحمن مفعـــول
كل ابن انثى وإن طالت سلامته
يوما على آلة حدباء محمـــول
أنبئت أن رسـول الله أوعـدني
والعفو عند رسول الله مأمـــول
لقد أقـوم مقـامـا لـو يـقـوم به
أرى وأسمع ما لو يسمع الفيـــل
لظل يُـرعـد، إلا أن يـكـون له
من النبي، بإذن الله، تنويـــــل
ما زلت أقتطع البيداء مدرعا
جنح الظلام وثوب الليل مسبول
حتى وضعت يميني، لا أنازعه
في كف ذي نقمات قيله القيـــل

إنك إن قرأت هذه الأبيات في ظل أجواء الشاعر النفسية هان عليك أن تقول: إن صاحبته التي عشقها لجمالها وأخلص في حبه لها جديرة بأن يصفها على نحو ما جاء في مقدمته للقصيدة:

تصيدة بانت سعاد : سطور في تحقيق الإسناد !!!

تحرج كثير من المحدثين في إثبات القصيدة كعب بن زهير المشهورة ومسألة سماع النبي ﷺ لها ، ومطلعها :

" بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبـــول "

إن فيها - بزعمهم رحمهم الله وغفر لهم - غزلاً مسرفاً !!

وفي جانب الإسناد تحاملوا بقول العالم الحجة الحافظ العراقي -رحمه الله - عن القصيدة : " رويناها من طرق لا يصح منها شيء " !!

وقد فحمل بعضهم فذكر ان الخبر والقصيدة قد جاءا من طريقين لا يخلوان من علة ، فمدعاه: عند ابن قانع من طريق الزبير بن بكار عن بعض اهل المدينة عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب ، وهذا السند معتل بأمرين ، أولهما : الجهالة (وهي : بعض اهل المدينة) والثانية : الإرسال. فابن المسيب - رحمه الله - لم يدرك عصر النبوة

لكن عند التحقيق نجد ان الرواية جاءت عند محمد بن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشعراء " خافية من الجهالة ، حيث روى عن : " محمد بن سليمان عن (يحيى بن سعيد الأنصاري) عن سعيد بن المسيب " . اما بالنسبة لعلة الإرسال ، فيجاب عنها بان المراسيل إذا تعددت طرقها واشتهرت (كما هي الحال هنا) كانت كالمسند .

اما الطريق الثاني الذي جاءا منه (أي : الخبر والقصيدة) فعند ابن إسحاق في السيرة بالرواية عن شيخه عاصم بن عمرو بن قتادة ، وعلة السند هنا الانقطاع .

ولكن الخبر والقصيدة جاءا - ايضا - من سند آخر متصل من طريق إبراهيم بن المنذر الحزامي ، وهو (شيخ البخاري) عن الحجاج بن ذي الرُّمية بن كعب بن زهير ، عن ابيه ، عن عمه ، وذكر الخبر والقصيدة .

أما الإسناد علي بن المديني في الخبر والقصيدة التي جاءت من هذا (أي : طريق إبراهيم بن المنذر الحزامي) : " لم اسمع فذاكم خبر كعب بن زهير حديثا اتم ، ولا ايقاني من خبره غير هذا " .

وقد صحح الشيخ إسماعيل الأنصاري - رحمه الله - (في رسالة لطيفة بهذا الشأن سماها: القول المستجاب في بيان صحة قصيدة بانت سعاد، وصدرت في دار الإصمعي عام ١٤١٩هـ) ان القصيدة سماعا صحيحا متصلاً ، كما ان لها [... وقد تلقى الجميع] تلك بالقبول فلا مطعن في اي محاولة للتشكيك فيها !.. سة القصيدة العينية ، اما في الأدب فإن روايتها مستفيضة ومشهورة.

(بفتح الباء وسكون اللام) المكررين للقصيدة قبولها ، لانه لم تعد لهم من سوى ما ذوموه من دعوى تنزيه الرسول ... عن سماع شعر التسيب ، على "الذوق الشخصي" المحض ، وهو يتسع لكل الأذواق وعرفه الأولى ، وهذان الأمران لا يمكن التلقا بهما - ولهذا فمن حكمة وقية . ار العرب في الجاهلية والإسلام يؤكد ان الفتاح القصيدة ومقدمات مرئاً مشبباً ، ثم إن كثيراً من الصحابة حسان بن ثابت في الإسلام التي وسمعه لا تخلو من الغزل على ما هو متعارف عليه.

أحمد علي آل مريع*

أكـرم بها خـلـة، لـو أنـهـا صـدقـت
موعودها أو لَوَ انَّ النصح مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها
فجع، وولع، وإخلاف، وتبديـــل
فما تـدوم على حـال تـكـون بها
كما تلون في أثوابها الغـــــول
ولا تمسَّكُ بالعهد الـذي زعمت
إلا كما يمسَّكُ بالماء الغرابيـــل
فلا يغرنك ما منَّت، وما وعدت
إن الأمانيَّ والأحلام تضليـــل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا
وما مواعيدها إلا الأباطيـــل

ولك أن تسأل معي، أمثل هذا الوصف يمكن أن يقال فيه : إنه غزل ! أم أنه - كما نظن - كان يصف أصدقاءه، فهو أنسب إلى وصف ما قابلوه به من إعراض، وتنكر لما كان بينهم من مودة. وإن كان حديثه هذا غزلا، أو من معانيه، فهل لنا أن نقول: إن فيه ما يخدش الحياء؟ أما عني فإني تحسرت على الشاعر، وقلت في سري : عوضك الله خيرا من صاحبتك. وبحثت عن الصفات التي تقابل ما وصم بها صاحبته فوجدت أنها صفات المسلمين، فنعمت الصفات هي.. ■